آخر سوى الفرق بين زيه وزي أبيه والنزعات النفسية فيهما. أما المعارف والعلوم فهو منها خالي الوفاض بادي الانقاض قد نسي تلكم القشور التي قد حصلها منها.

فمثل هذا سيعود من أوروبا وقد قطع آخر خيط يربطه ببلاده كلها لا سيما اذا عاد وبيده شهادة. وأي خير يرجى من مثله لبلاده؟ وأين هذا الشاب المسكين المغرور بنفسه من شاب تعلم في مدرسة صبغت بصبغة وطنية كمدرسة المعلمين الناصرية مثلا وأتم الدراسة فيها ثم سافر الى أوروبا؟

---

# الخيال في الشعر العربي

## ٢

### التخييل التحضيري

تتداعى المعاني بوسيلة التذكر للاسباب التي كنا بصدد البحث عنها، ثم المخيلة تنتخب منها ماينا سب الغرض، وهذا العمل اعني الانتخاب يسميه علماء النفس تخييلا تحضيريا لانه العمل الذي تتمكن به المخيلة من استحضار العناصر المناسبة للمرام

تقتصر المخيلة عند الانتخاب على مايدعو اليه الغرض حتى انها تأخذ الجسم مقطوعا من بعض الاعضاء التي لامدخل لها في المعنى فتتصور الجواد بغير قوائم كما قال المتنبي

اتوك يجرون الحديد كانما اتوا بجياد مالهن قوائم

والعقرب بغير ذنب كما قال ابو هلال

تبدو الثريا وأمر الليل مجتمع كأنها عقرب مقطوعة الذنب

وربما انتزعت العضو من بين سائر الجسم كما أخذ ابن هانئ اليد فقال

ولاحت نجوم للثريا كأنها خواتيم تبدو في بنان يد تخفي

وأخذ ابن المعتز القدم فقال

وارى الثريا في السماء كأنها قدم تبدت من ثياب حداد

واخذ آخر القلب فقال

نقل الجبال الرواسي من مواطنها أخف من رد قلب حين ينصرف

## التخييل الابداعي

بعد أن تنتخب المخيلة مايليق بالغرض من العناصر تتصرف فيها بالتأليف الى أن ينتظم منها صورة مستطرفة، ويسمى هذا التصرف تخييلا ابداعيا أو اختراعيا ويجري هذا التخييل في التشبيه والاستعارة وغيرها

فالتشبيه قد تحذف اداته كما في قول النابغة

فانك شمس والملوك كواكب اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وعمل الخيال فيه هو احضار صورة المشبه به أعني الشمس والكواكب والماء وجوه التباين بينها وبين المشبه أعني الممدوح وبقية الملوك حتى يدعى اتحادهما ويصح الاخبار بأحدهما عن الآخر، وبني على هذا الادعاء أن ليس للملوك مظهر ولا تقوم لهم امام هذا الملك سمة فان الكواكب يتقاص ضوءها ويغرب عن العيون مشهدها عند ماتتجلى الشمس في طلعتها الباهرة

واما ما تذكر فيه اداة التشبيه فلا استطيع أن أعده في قبيل الخيال جملة كما اني لاأعزله عنه في كل حال، فان كان فيه اخراج المعقول في صورة المحسوس او المحسوس في صورة المعقول أو اخراج الخفي الى ما يعرف بالبداهة أو اخراج الضعيف في الوصف الى ماهو أقوى فيه فتصح اضافته الى الخيال اذ له الاثر القوي في تقريره

وأما عقد المشابهة بين أمرين متفقين في وجه الشبه من غير تفاوت كالتشبيه الذي يساق لبيان الاتحاد في الجنس أو اللون أو المقدار أو الخاصية فلا يصح نسبته الى الخيال الشعري وان وقع في كلام مقفى وانما هو مما ينظر فيه الباحث عن الحقائق كالفيلسوف أو اللبيب

فلو اتفق ان وقف فتى بجانب ظبي وانطلقا في فسيح من الارض ولم يفت أحدهما صاحبه قيد شبر فبدا لك أن تتحدث عنهما فقلت ولو في نظم «كان فلان

في سرعة عدوه كالغزال » لم يكن في هذا التشبيه شيء من الخيال لان عقد المشابهة بينهما في هذا الحال يشاركك فيه كل من شاهد الواقعة ، وانما يمتاز التخيل بمثل قول الشاعر

وفي الهيجاء ماجربت نفسي ولكن في المزيمة كالغزال

حيث ان الخيال بحث عن صورة المشبه به وهو الغزال وانتقاها من بين سائر الصور المتراكمة في الحافظة ثم تصور انطلاق المنهزم وهو الشاعر نفسه وبالغ في مقدار سرعته الى أن وقع التشابه بينه وبين الغزال

وان أردت أن تفرق بين التشبيه الذي يدخل في التخيل والتشبيه الذي هو عائد عن طريقته فانظر الى قول المجنون

كأن القلب ليلة قيل يغدى بليلى العامرية أو يراح

قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

فترى الخيال هنا قد تجول حتى تصيد معنى القطاة ووقع على الشرك ثم انتزع منهما هذه المعاني وهي وقوع القطاة في الشرك وعلوق جناحها به ومعالجتها له كي تتخلص منه وضم بعضها الى بعض فانتظم ذلك المعنى المركب وانعقدت المشابهة بينه وبين حال القلب الذي وقع في حب العامرية فاخذ يرتجف وجلا من لوعة الفراق

ولو نظر شاعر الى ازهار مفتحة بمكان منخفض من الارض وقال مثلا

هذه الازهار في منظرها وشذاها مثل ازهار الربا

لاستبردت شعره لاول وهلة وأخذت تهزأ به كما هزأت بقول الآخر

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

بيد أن ذلك التشبيه نفسه لو يصدر من العالم بالنبات في الرد على من يدعي ان هذه الازهار ليس لها لون ولا تفحات عاطرة كالازهار التي تنبت على الربا لاصغيت اليه سمعك وتلقيته منه بكل وقار . وما ذاك الا لان الاول قاله بوصف كونه شاعراً ولم يأت فيه على عادة الشعراء بشيء من التخييل وأما الثاني فانما القاه اليك في صدد البحث عن الحقيقة فلا تنتظر منه أن يصله بشيء من عمل الخيال

والاستعارة يصنع فيها الخيال مايصنع في التشبيه المجرد من الاداة الا أنها تعرض عليك المشبه في صورة المشبه به على وجه أبلغ ولا سيما اذا أضيف اليها بعض معان عهد اختصاصها بنوع المشبه به أعني مايسميه البيانيون ترشيحاً ، ومن أبدع مانسج على منوالها قول البارودي

من النفر البيض الذين سيوفهم لها في حواشي كل داجية فجر
اذا استل منهم سيد غرب سيفه تفزعت الافلاك والتفت الدهر

أراد الشاعر وصف قومه بأنهم أولو الصرامة التي تفرج الكرب المدلهمة والسطوة التي يرهبها كل خطير فساق اليك هذا الغرض في صورة تنظر منها الى سيوفهم كيف تجرد حول الليلة الفاحمة فيسطع الفجر الواضح في جوانبها، وترى فيها الحسام الواحد كيف يسل من جفنه فترتعد الافلاك ذعراً ويلتفت له الدهر حذراً خيل اليك أن الداهية ليلة ظلماء، وأن الفرج الذي ينبعث من مطلع سيوفهم صبيحة غراء، وعبر عن الأولى باسم الداجية وعن الثانية باسم الفجر وهذا التعبير الملوح الى ذلك التخييل هو الذي يعنيه البيانيون بقولهم استعارة مصرحة

ثم خيل الفلك في صورة من له قلب يفزع والدهر في صورة من له وجه يلتفت، والتصريح باسمهما بعد هذا التخييل يدخل به الكلام فيما يطلقون عليه لقب الاستعارة بالكناية، ويمكنك أن تفهم الفجر في البيت بمعنى لمعان السيوف وتألقها المشاهد بالابصار على نمط قول بشر

سللت له الحسام فخلت أني شققت به لدى الظلماء فجرا

ولكنك تضيم من يدك ما أفاده الوجه الاول من أن النجدة في جانبها، والنفر مقرون ببطالها، اذ لا يلزم من لمعانها في حواشي الداجية أن تلمع في لبتها وتقلبها بالفوز عليها الى صبيحة مسفرة (١)

---

(المنار) هذان البيتان من قصيدة للبارودي يعارض بها رائية أبي فراس المشهورة « أراك عصي الدمع شيمتك الصبر » وقد أشرنا اليها في ترجمته من مجلد المنار السابع وذكرت البيتين وعلقت عليهما بعبارة لا بأس بذكرها هنا لانها في الاشارة الى ما فيهما من الخيال وهي :

ويالله ما أرق حاشية قوله « لها في حواشي كل داجية فجر » وما أدق غزل خياله فيه . وأما البيت الثاني فانه ليكاد يروع ببلاغته السامع حتى يخيل اليه أن الأفلاك تصدعت مما تفزعت فيلمس رأسه مخافة أن يصيبه كف منها ويتمثل له الدهر رجلا فجئه العجب ، فالتفت الى السبب، وليكاد يلفته ما يتخيل من التفات الدهر به فيلم به الدهش والذعر، او يذهب به الوهم الى ان التفات الدهر هو التفات أهله فيحسب كل فرد من الناس قد ألوى عنقه وشخص ببصره منتظرا ما يكون من فعل ذلك السيف المسلول في يد ذلك البهمة الاشل ، وجملة ما يقال في البيتين ان هذا السحر الذي يأخذ المرء عن نفسه، ويحكم سلطان الخيال في عقله وحسه .

ومن التخييل الذي لا يدخل له الشاعر من طريق تشبيه أو مجاز ما تشهد لصاحبه بالحذق في الصناعة وأنت تشعر بانه عرض عليك الموهوم في حلية المعقول كقول الطائي

ولا يروعك ايماض القتير به فان ذاك ابتسام الرأي والادب

أخبر عن الشيب بانه ابتسام الرأي والادب اللذين هما محبوبان ومحترمان لكل أحد ابتغاء ان تأنس العين لرأيته ولا تنظر اليه نظر الازدراء به، وليس هذا من قبيل التشبيه اذ لم يكن للرأي والادب ابتسام يمهده السامع حتى يقصد الشاعر الى تشبيه الشيب به بل أراد أن يخيل لك أن الشيب ابتسام في الواقع ولهذا تجد في نفسك ما يناجيك بان صورة هذا المعنى غير مطابقة للحق وان استحكم تأليفها ودق مأخذها

ومنه ما يستلحه الذوق ويسمه نظر المحقق ونجد هذا في قول زهير

لو نال حي من الدنيا بمكرمة أفق السماء لنالت كفه الافقا

فهذا البيت لم ينسج على منوال تشبيه أو مجاز، وليس لك أن تطرحه من حساب التخييلات المقبولة ، وبلوغ كف الممدوح الافق لا يتفق مع النظر الصحيح غير أن تعليقه على حصوله لانسان من قبل وايراده عقب حرف الشرط الدال على امتناعه قد خلصه من زلة الكذب وجعله في منعة من أن ينبذه العقل الى القضايا الوهمية

## فنون الخيال

يتصرف الخيال في المواد التي يستخلصها من الحافظة على وجوه شتى، ولا يسع المقام استيعابها وتقصي آثارها فنلم لك بمهماتها وما يصلح أن يكون بمنزلة أصل تتفرع عليه تفاصيلها

أحدها تكثير القليل كقول عمرو بن كلثوم

ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملاه سفينا

فانه اطرد في حلية الفخر حتى وصل الى التعبير عن منعة الجانب، والسطوة التي لا يفوتها هارب، فخطر له أن يثبت له ولقومه من القوة ووسائل الفوز ما يرهبون به عدوهم فذكرانهم ملأوا البر جندا حتى لم يبق فيه متسع ويملأون ظهر البحر بالمنشآت من السفن ليدل بهذا على انهم لا يبالون بالعدو من أي

ناحية هجم ولا يتعاصى عليهم ادراكه في أي موطن ضرب بخيامه

والذي صنع خيال الشاعر في هذا البيت انه تجاوز في الاخبار بكثرة قبيلته وسفنه حد الحقيقة وتطوحت به نشوة الفخر الى أن تخيل ان البر قد غص كما تغص الشكنة بجنودهم وان البحر يتموج بسفنهم كموج السماء المصحية بكواكبها الزاهرة

ومنها — تكبير الصغير كقول بشر يصف وقعة الاسدحين قسمه بالضربة القاضية على شطرين

فخر مضرجا بدم كأني هدمت به بناء مشمخرا

فقد تخيل عند ماسقط الاسد الى الارض دفعة انه أتى الى بناء شامخ ونقضه من أساسه فانقضت أعاليه على أسافله ، فالخيال هو الذي بلغ بجثة الاسد الى أن جعلها في العظم بمقدار بناء ارتفعت شرفاته حتى اتخذت من السحب أطواقا

ومنها — تصغير الكبير كقول المتنبي

كفى بجسمي نحولا أنني رجل لولا مخاطبتي اياك لم ترني

وقوله ولو قلم ألقيت في شق رأسه وخط به ما غير الخط كاتب

فالسب وان تقلب على فراش الهجر أمدا طويلا وأكل الوجد من لحمه حتى شبع وشرب من دمه حتى ارتوى لا يصل في نحافة الجسم الى أن يسعه شق رأس القلم أو يخفى عن عين الناظر اليه وان كانت عشواء وانما هو الخيال أخذ يستصغر ذلك الجسم حتى ادعى في البيت الاول ان مخاطبته للناس هي التي تهديهم الى مكانه فيبصرونه، ولولاها لبقي محجوبا عن أبصارهم وان وقف قبالتهم، وادعى في البيت الثاني أنه لو وقع في شق اليراعة وانطلقت به اليد في الكتابة لاستمر الخط بحاله

ومنها — جعل الموجود بمنزلة المعدوم كقول المتنبي

ومطالب فيها الهلاك أتيتها ثبت الجنان كأنني لم آتها

وصف نفسه بالاقدام على مواقع الردى واقتحام الاخطار بجنان ثابت وعزم لا يتزلزل حتى تخيل لقلة المبالاة بها وعدم الفزع لملتقاها انه لم يكن قد خاض غمارها، ورآها كيف تنشب أظفارها، وانما نشأ هذا الخيال من جهة أن الخطوب المدلهمة لا يسلم من روعتها والدهشة لوقعتها في مجرى العادة الا من حاد عن ساحتها، وجذب عنانه عن السير في ناحيتها،

ومنها — تصوير الامر بصورة حقيقة أخرى ، ولها في هذا المقام أربعة

أحوال الجماد ) تخيل المحسوس في صورة المحسوس كما في قول زهير

بكرن بكورا وقد تمت جميا الكأس فيهم والغناء
فشلوا فلما أصبحت مقاتلهم ولم تهرق دماء

فهذا الشعر يصورلك من دارت نشوة السكر والغناء برؤسهم، فاجهزت على البقية من شعورهم، في صورة قتلى لم تهرق دماؤهم، بل زهقت نفوسهم بمثل خنق أو سقاء سم دب دبيب الخمر في مفاصلهم

(ثانيها) تخيل المعقول في صورة المحسوس كما في قول الشاعر

مررت على المروءة وهي تبكي فقلت علام تنتحب الفتاة
فقالت كيف لا أبكي وأهلي جميعا دون خلق الله ماتوا

تصور المروءة في زي فتاة فتسنى له أن يسند اليها البكاء ويعقد بينه وبينها هذه المحاورة

(ثالثها) تخيل المعقول في معنى المعقول وهذا كمن تخيل المذلة في معنى الكفر فقال

أمطري لؤلؤا جبال سرنديب وفيضي أجبال تكرور تبرا
منزلي منزل الكرام ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرا

(رابعها) تخيل المحسوس في صورة المعقول، وهذا لم نعثر له على مثال في كلام العرب ولكن التشبيه الذي هو أساس هذا الفن قد جرى في كلام المولدين بايراد المحسوس في معرض المعقول كقول التنوخي

فانهض بنار الى فحم كانهما في العين ظلم وانصاف قد اتفقا

وقول الفاروقي

تمزم مع الاتراب بالخيف من منى مرور المعاني في مفاوز أفكاري

وقد يعمد الشاعر الى بعض المعاني وينفيه عن أفراده المعهودة و يثبته لأفراد مفهوم آخر وتجد هذا في قول بعضهم

ليس من مات فاستراح بميت انما الميت ميت الاحياء
انما الميت من يعيش كئيبا كاسفا باله قليل الرجاء

فقد نفى أن يكون من قضى نحبه ميتا وأطلق اسم الميت على من فاضت نفسه

كآبة وضاق صدره يأساء على طريقة القصر بدعوى أن المعنى الذي علق عليه الواضع اسم الميت انما يتحقق فيمن يعيش في نكد وبلاء لا يرجو خلاصا منه، والذي أخذ به الى هذه الدعوى ما تخيله من أن خواص الراحل الى القبر وهي مفارقة ما كان يتمتع به من طيبات الحياة وانقطاع أمله منها ونكث يده من العمل فيها توجد باجمعها في الكئيب اليائس من صفاء العيش بأشد مما توجد فيمن ركبوا على مطية المنون لانه يزيد عليهم في الشقاء بأنه يصلى نار الحسرة والاسف بكرة وعشيا

وقد يكون الامر مربوطا بعلة محققة ظاهرة فيضرب عنها ويخترع له علة من عنده ونجد هذا في قول أبي العباس الضبي

لا تركنن الى الفرا ق فانه مر المذاق
فالشمس عند غروبها تصفر من فرق الفراق

ادعى ان العلة في الاصفرار الذي يبدو على وجه الشمس حين تتدلى الى الغروب وتنطفىء جمرتها انما هو الوجل والهلع من مفارقة الناس الذين طلعت عليهم ذلك اليوم حيث اتصلت بينهم وبينها فيما يزعم عاطفة ألفة وايناس

ومما صنعت على هذا النمط وقد أخذ البرد يتساقط في حديقة

هز النسيم غصون الروض في سحر كما يهز بنان الفادة الوترا
لذ(١) الخفيف على اذن السحاب أما تراه يحنو على أدواحها درا

وقلت وقد أخذت الريح تنسف في روض

قام هذا الروض يشدو مادحا بلسان البلبل الزاهي صحابا
وتنادى عاليا في مدحه فحثت في وجهه الريح ترابا

وقلت في حال أشجار تراكم عليها الثلج ثم ضربت فيها الشمس فاخذ يتقاطر عن جوانبها

نسج الغمام لهذه الاشجار من قزل الثلوج براقعا وجلابيا
والشمس تبعث في الضحى باشعة تسطو على تلك الثياب نواهبا
فبكت لكشف حجابها أو ما ترى عبراتها بين الغصون سواكبا

وقلت في حمرة الشفق

قتل الدجى هذا النهار ودمه تحت التراب مضرجا بدمائه

فخذوا من الشفق الشهادة انه لطخ من الدم نال ذيل ردائه (؟)

وربما يصاغ التعليل في قالب التشبيه كقول أبي تمام

كأن السحاب الغر فيهن تحتها حبيبا فلا ترقا لهن مدامع

فلو حذفت اداة التشبيه هنا لكان الباقي بمنزلة العلة الخيالية لنزول الغيث المنسجم من ينابيع السحاب، واقترانه باداة التشبيه يجعله بحيث يسكت عنه العقل ولا يمانعه من أن يدخل في سبيل المباني الصادقة.

ومما نظمت على هذا المثال وكان الجو يقذف وقت السحر بثار من الثلج

تطاول هذا الليل والجو مزبد فضاقت بأمواج الثلوج مسالكه

كأني أذيب الصبح بالحدق التي يقلبها وجدي وتلك سبائكه

وقد يقرر الشاعر معنى ثم يقابله بأمر أوضح منه عند المخاطب دون أن يصرح فيه باداة تشبيه بل تكون مصدرة باداة استفهام كقول مسكين الدارمي

وان ابن عم المرء فاعلم جناحه وهل ينهض البازي بغير جناح

أو باداة التوكيد فقط كقول أبي العتاهية

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لا تجري على اليبس

أو تقرن اداة التوكيد بالفاء كقول بشار

فلا تجعل الشورى عليك غضاضة فان الخوافي قوة للقوادم

أو بالفاء وحدها كقول بعضهم

لا تحسبوا أن رقصي بينكم طرب فالطير يرقص مذبوحا من الالم

ولنوجه البحث الى معنى البيت الاول ثم لا يشتبه عليك بعد تحرير الغرض منه ان بقية الابيات جارية بمعنى التمثيل، أو ذاهبة مذهب الاستدلال والتعليل

صدر الدارمي البيت بجعل ابن عم المرء بمكان الجناح له، والشطر الثاني ينفي عن الباز أن ينهض بغير جناح ومعنى الشطرين لا يتم الا بملاحظة جملة مطوية مابين الصدر والعجز لم يفصح عنها الشاعر لسهولة مأخذها وبعد ملاحظة تلك الجملة يكون مفاد البيت أن ابن عم المرء بمنزلة جناحه فلا يقدر أن يقوم باعباء الحياة او يدرك فيها غاية شريفة الا بمعاضدته كما أن الباز لا ينهض الى الطيران الا اذا ساعده

جناحه والقصد تمثيل حاجة الانسان الى ابن عمه عجة البازي الى جناحه وليس القصد الاستدلال حتى يلتحق ببيت أبي تمام المسوق فيما سلف للاستشهاد على التخييل الذي يراد منه المخادعة وقول الدماميني

فلا تعجبوا يوما لكسر جفونها فان اناء الخمر في الشرع يكسر

فالاسلوب في نفسه وارد في الفرضين غير ان فحوى الكلام ومجرى الخطاب وطبيعة المعنى تصرفك الى التمثيل، أو تأخذ بك الى الاستدلال والتعليل

وقد يعمد الى أمرين يعدهما الناس بشدة التباين وغاية الاختلاف فيعقد بينهما تشابها وتجد هذا في قول المعري

وشبيه صوت النعي اذا قيـ ـس بصوت البشير في كل ناد
أبكت تلكم الحمامة ام غنـ ـت على غصن دوحها المياد

فالمعهود ان النفس ترتاع لصوت النعي وتتفطر حزنا، وترتاح لصوت البشير وتأنس له طربا، ولكن الحكيم يغوص في اعماق الحوادث، وينظر الى ما تصير اليه من العواقب، فيتراءى له ان ليس في الحياة مايدعو الى لذة، او يستثير النفس الى جزع، فتكون نغمة البشير وصيحة الناعي في أذنه سواء، ولا يرى فارقا مابين النواح والحداء (له بقية)

---

## باب الاخبار التاريخية والآراء

### تفرق العرب واختلافهم في جزيرتهم

كان لما كتبناه في الجزئين الاخيرين بشأن العرب وجزيرتهم استحسان عظيم عند أولي الرأي والغيرة من قراء المنار ومثله ما كتبناه في المجلد الحادي والعشرين في مسألة الخلاف بين الحجاز ونجد ـ تبين لنا ذلك من حديث من كلمنا في هذه المسألة في سورية اذ كنا فيها عند نشر ذلك ثم من كلمنا في مصر في هذا وذاك

وأكبر مصائب العرب بأممهم وأمرائهم انهم قد ازدادوا تفرقا وتعاديا وعدوانا وتقاتلا بقدر اشتداد الحاجة الى الاتفاق والتواد والتعاون فيما بينهم، وقد رأينا في جريدة القبلة المكية التي هي لسان حكومة الحجاز ورأيها مقالا في التعادي والتقاتل بين العرب السعوديين ومن يتصل بهم من عرب نجد